مسألة «الشرعية» أكثر الحاحاً بشكل رئيس منذ العام ١٩٦٧، عندما بدأت اسرائيل ممارسة سيطرتها على عرب الضفة الفلسطينية، الأمر الذي أدّى الى ازدياد ميل النظام الاسرائيلي الى السقوط في هوّة الرموز الدينية(٥).

اذن، من المؤكد، بالنسبة الى اسرائيل، ان محصلة ٤٠ سنة من الصراع لاثبات «الشرعية»، اقليمياً وتاريخياً وشعبياً، ليست بالمحصلة التي تنبىء بأن ثمّة امكانية للقول ان المشروع الاسرائيلي باقٍ.

هذه الدوّامة تشكّل المأزق الذي يقف خلف التخبّط السياسي في اسرائيل حالياً حول تخريجة ممكنة للخلاص من عدم القدرة على صوغ سياسة استراتيجية واضحة المعالم، حيث ان أول عقبة تقف في مواجهة مثل هكذا صياغة انّما تتمثّل في «الشرعية». فبعد انتصارات اسرائيل في حرب العام ١٩٦٧، وبعد سياق من التهويل الوجودي القائم على مبدأ القوة، جاءت حرب العام ١٩٧٣ لتضع مقولة موشي دايان حول ان الحرب ستستمر اذا وصل الاسرائيليون الى قناة السويس موضع الحقيقة المطلقة. فالنصر الدراماتيكي الحاسم في حرب العام ١٩٦٧، لم يؤدّ الى ارساء اسرائيل كحقيقة شرعية، ولم يحوّل الموقف الداخلي الى موقف ايمان كلي بحقيقة الوجود، او استمراريته.

في بحث في العيّنة، أُجري العام ١٩٧٨ على مجموعة من المستوطنين(٦)، تمّ سؤالهم عن احتمالات تحقيق العرب لاهدافهم المتمثّلة في تدمير اسرائيل في المستقبل المنظور (خلال ٢٠ عاماً). كانت النتيجة ان ٣٤ بالمئة رأوا ان هذا الاحتمال مستحيل، بينما رأى ٣٩ بالمئة ان هذا الامر محتمل بنسبة عشرة بالمئة الى ٠,١ بالمئة، كما رأى سبعة بالمئة منهم ان هذا الاحتمال يصل الى ٥٠ بالمئة، فيما رأى ٤,٦ بالمئة منهم ان الاحتمال المذكور قد يحدث بنسبة تزيد على ٥٠ بالمئة. كما ان هذه العيّنة المتمثّلة وسطياً بـ ١٣ بالمئة رأت ان احتمال تدمير اسرائيل يتأتى من ان الوقت يعمل لصالح العرب. وعندما يقارن الاستراتيجيون الاسرائيليون يجدون ان المتفائلين يعتقدون بأن الزمن يعمل لصالح اسرائيل، وان احتمال تدمير هذه الدولة سيضعف في المستقبل، بينما يرى المتشائمون ان احتمالات تدمير المجتمع الاسرائيلي تزداد مع مرور الزمن، وان ثمّة توازناً بين الاتجاهين. وهذا التوازن سينعكس بطبيعة الاحوال على الاداء الشعبي، والعسكري، في المدى البعيد، اذا استمر الصراع في أشكاله الدرامية السابقة.

أكدت حرب العام ١٩٦٧، على الرغم من نتائجها التي بدت لنا، كعرب، قاسية، وكأنها تجسيد حيّ لاستراتيجية ناجحة، ان اسرائيل لا تمتلك أية استراتيجية بالمعنى السياسي للعمليات العسكرية التي تقوم بها(٧). فالقرارات السياسية الأولية قد انتهكت من قبل ما هو عسكري، حتى اننا نستطيع القول ان اللحظات كانت مع حرب محدودة بهدف تخريج الازمة الخانقة، سياسياً وعسكرياً، بعد اغلاق المضائق وسحب القوات الدولية، التي رابطت في سيناء منذ العام ١٩٥٦؛ أمّا النتيجة، فقد كانت حرباً غير محدودة تجاوزت كل حساب سياسي، وكلّفت اسرائيل ثمناً لم يكن في واردها لو انها كانت تخطط استراتيجياً:

١ ـ كلفت هذه الحرب اسرائيل حرباً أخرى ومأزقاً سياسياً ـ عسكرياً مستمراً حتى الوقت الراهن.

٢ ـ أوقعت اسرائيل في مأزق الوجود السكاني العربي الذي يهدّد مقولة «الديمقراطية» الاسرائيلية بوضعها في نهاياتها الطبيعية المكشوفة المتناقضة مع طبيعة انشاء الدولة ذاتها.